

التحول النفسى للشعوب

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

=====

عندما دخلت مصر عصر الانفتاح لم يحدث الإعداد النفسى والتجهيز المعنوى لما ستقدم عليه مصر . ولعل هذا القصور مسئول إلى حد كبير عما وصلنا إليه الآن . توجد فى مصر حاليا حالة من انعدام الوزن ومن السلبية التى تصل إلى درجة العصيان المدنى غير المعلن . فقليل من هم متحمسون مبدعون مقبلون على الحياة والتطوير . تجمدت الأيدى وتسمرت الأرجل كما لو كانت عقارب الساعة وقفت مكانها من بعد نصر أكتوبر العظيم . عندما تحقق النصر الكبير وتبعه الانجراف السريع نحو الغرب وأمريكا تحديدا تصور الشعب المصرى أننا مقبلون على عهد من الرخاء والانتعاش الاقتصادى وأن أموال الغرب ستندفق إلى مصر وتقام المصانع وتزدهر الحياة لأننا أصبحنا حلفاء لأمريكا . بل تصور البعض أن مصر ستكون تايوان جديدة أو كوريا جنوبية أخرى أو حتى مكسيك جديد . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . دفعت مصر استحقاق السلام بامتياز كاملا ومثاليا بل لعلها بالغت فى التعبير عن حسن نواياها لإثبات جديتها فى الالتزام بثقافة السلام وغيرت مصر من جلدها الاشتراكى وتحولت بسرعة إلى مفاهيم الرأسمالية وأخذت تصفى القطاع العام بسرعة هائلة وتعزز القطاع الخاص بغير حدود . وهنا بدأ الشرخ يظهر . إن الرأسمالية الناجحة تعتمد على ثلاث مكونات رئيسية لا يمكن إغفال أيها . فالعامل الأول هو رأس المال المحرك للحياة والعامل الثانى ولا يقل أهمية عن العامل الأول هو القوة البشرية للتقدم والمدربة على الإنتاج المتميز . والعامل الثالث هو المناخ العام للدولة الحافز للاستثمار وللبناء وللتقدم . أما العامل الأول فقد نشط على يد عائلات بعضها له جذور عريقة فى الاستثمار والعمل الحر من قبل أيام التأميم فى الستينات فبدأت من جديد لتستعيد امتيازاتها ونقاط قوتها بما بدا أنه إزالة كاملة للعهد الناصرى وما حمله من تعاطف شعبى أساسه دولة الفقراء وحكم المحرومين . فهم رجال الأعمال رسالة الانفتاح أنه إذن بالانطلاق نحو تكديس الأموال بالحلال والحرام بالاستيراد والسمرة . واغتنى من لم يكن بحوزته مال حتى أنه قيل أنه من لم يغتنم فرصة انفتاح السادات فقد فاتته كل الفرص . وعلى صعيد العامل الثالث قدمت الدولة كثيرا من التسهيلات للقطاع الخاص لينشط وباعت كثيرا من ممتلكاتها إلى القطاع الخاص ووفرت إلى حد كبير بنية تحتية معلوماتية لازمة لمناخ الاستثمار وحاولت إزاحة بعض المعوقات التى تقف فى طريق الاستثمار . ومع ذلك لم تتدفق رؤوس الأموال فى مشروعات عملاقة . كلها مشروعات استهلاكية إسكانية ترفية قليل فقط ما يمت إلى الصناعات الثقيلة أو الصناعات الألكترونية المتقدمة . ثلاثون عاما تقريبا مضت على الانفتاح ولم تصل مصر إلى مرحلة تايوان ولا كوريا الجنوبية ولا ماليزيا ولا حتى تركيا ناهيك عن الهند والصين . ما السبب ؟ لقد أغفل التحول الرأسمالى العنصر الثانى وهو البشر . صحيح أكد الرئيس مبارك مرارا على أهمية رعاية ذوى الدخل المحدود . ولكن الحكومات المتعاقبة منذ بداية الانفتاح لم تترجم ذلك التوجه إلى الاستفادة الحقيقية من القوة البشرية . فما أشبه ذلك بقطار سريع جاء لينقل الركاب ، ركب فيه من ركب من اصحاب

الطموح والشطارة ولم يدرك أغلب الناس كيف يتعاملون مع هذا القطار فتخلفوا وانطلق القطار وتركهم على المحطة . هذا حال أغلبية الشعب المصرى الآن يشعرون أن القطار فاتهم وأن من ركب القطار هم السباقون إلى الثروة والنفوذ وأن القطار مضى ولا شأن لهم به فهم ينتظرون على المحطة بلا أمل وبلا حراك . وسوف يدرك الذين ركبوا القطار وتركوا الناس على المحطة أنهم لن يكسبوا الكثير على المدى البعيد لأن مصالحتهم وثرواتهم تعتمد بالدرجة الأولى على هؤلاء الناس الذين تركوهم وراءهم يزدادون فقرا ويأسا . وكلما زادت الهوة اتساعا بين الأغنياء والفقراء زادت حالة الانفصام والخصام بين فئتي المجتمع الفئة القادرة على تحريك الأمور بالمال والنفوذ من ناحية والأغلبية الساحقة التى تمثل الركيزة والقاعدة لهذا الوطن من ناحية أخرى . الدول التى سبقتنا وتفوقت علينا اعتمدت فى تقدمها على هذه الأغلبية الساحقة والتى تمثل القوة الضاربة للعمل والإنتاج وحولتها من طاقة سلبية مشحونة باليأس والحقد إلى شريك فى التحول الرأسمالى نحو الرخاء والازدهار . وأصبح الشريك صاحب المال وصاحب إرادة العمل طرفى قصة نجاح كلاهما يحتاج إلى الآخر وكلاهما مستفيد بالتقدم . ما يشعر به الشعب المصرى الآن هو أنه واقف مكانه لا يدرى ماذا يفعل ولا توجد لديه إرادة تحرك ولا خطة عمل . يشكو من الفقر والغلاء ويريد أن تمن عليه الحكومة بدخل اكبر بينما هو من جهته لا يستطيع بل لا يريد أن يقدم جهدا أكبر والنتيجة محكك سر . لا الحكومة قادرة أن تزيد دخله ولا هو قادر على الإنتاج لزيادة الناتج القومى بما يمكن الحكومة من رفع المرتبات ومع ذلك فلا بد من إيجاد طريقة لزيادة الدخل وليكن من أجل استمرار دورة الحياة ولو من أجل عيون رجال الأعمال فلن يستطيع رجال الأعمال بيع منتجاتهم إذا تراجعت القوة الشرائية لغالبية الشعب . إضافة لذلك فإن التفاوت الرهيب فى الأجور والدخول وهو غير مبنى فى معظم الأحوال على كفاءات حقيقية يصيب الشباب الموهوب والواعد بالإحباط . صحيح أنه يقال أن رجال الأعمال يتميزون بالذكاء وإلا ما استطاعوا أن يجمعوا المال . ولكن هل الذكاء محصور فيهم ؟ ألا يوجد ذكاء فى أهل العلم وأهل الفكر وأهل القضاء ومعظمهم لا مكان له على سلم الدخل والأجور بل يخجلون من التصريح بما يتقاضون من أجر . عندما كانت الدولة اشتراكية كانت ترعى الجميع بقدر شبه متساو فتساوى الجميع فى الفقر . أما فى ظل الانفتاح فقد قفزت فئة على أكتاف الباقيين ولم يتم تحويل وتدريب أغلبية الناس لهذا التحول الجديد . نعم لقد جربنا الاشتراكية ثم جربنا الانفتاح ولكننا إلى الآن لم نجرب الرأسمالية . الرأسمالية الحقيقية هى التى تتيح الفرص لكل الكفاءات والمواهب وتعطى الأمل مقرونا بالإنتاج وتجعل التفوق حافز الثراء والشهرة . الرأسمالية الحقيقية تعبى قوى الإنتاج كافة للإنتاج المتميز القابل للتصدير . توجد فى مصر أزمة عمالة وتوجد وظائف خالية عديدة ولكن لا توجد أيدى عاملة مؤهلة لشغلها . وهكذا تتوافق أزماتان أزمة بطالة مع أزمة عمالة . الرأسمالية الحقيقية أن يفهم الجميع أنه لا توجد توصيلة مجانية

No Free Ride وأنه لكى تعيش لابد أن تعمل ولكى تنجح لابد أن تتفوق لأنك فى سباق وفى تنافس والمطلوب هو الإتقان . هذا هو التحول النفسى المطلوب لكى تتقدم هذه الأمة .